المحاضرة السابعة

صور من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

– تفضل الله تعالى على خليله محمد (صلى الله عليه وسلم) بتوفيقه للاتصاف بمكارم الأخلاق ؛ و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.ثم أثنى عليه ونوه بذكر ما يتحلى به من جميل الصفات في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز ، من ذلك قوله تعالى: ((وإنك لعلى خلق عظيم)) . قد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة عما كان عليه المصطفى من أخلاق فاضلة ووصف خلقه صلى الله عليه وسلم بأنه عظيم.

و أكد ذلك بثلاثة أشياء :

أ. بالأقسام عليه بالقلم وما يسطرون.

ب. وتصديره بأن.

ج. وإدخال اللام على الخبر.

و كلها من أدوات تأكيد الكلام.

وقد نوه سبحانه بما جبل نبيه عليه (صلى الله عليه وسلم) من الرحمة والرأفة بالمؤمنين والحرص على ما ينفعهم في دينهم وأخراهم، والتألم من كل ما يشق عليهم بقوله سبحانه ممتنا على المؤمنين بإرساله: ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)).

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي (صلى الله عليه وسلم) ، قالت : (كان خلقه القرآن) صحيح مسلم.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : ومعنى هذا أنه (صلى الله عليه وسلم) صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيةً له وخلقاً . فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه، هذا ما جبله الله عليه من الخُلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خُلقٍ جميل. ا.هـ

– و فيما يأتي نستعرض جوانب من أخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم، لعلها تكون نبراساً لنا في حياتنا، فنقتدي بها، ونتخلق بمثلها :

أولاً : صبر النبي صلى الله عليه وسلم :

حكم الصبر : ينقسم إلى خمسة أقسام :

– القسم الأول : صبر واجب : كالصبر على الطاعات، والصبر عن المحرّمات، والصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها: كالأمراض، والفقر، وفقد الأنفس والأموال وغيرها.

– القسم الثاني : صبر مندوب : كالصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات.

– القسم الثالث : صبر محرم : كالصبر على المحرّمات : كمن يصبر عن الطعام والشراب حتى يموت أو يصبر على ما يهلكه من سبع أو حية.

– القسم الرابع : صبر مكروه : كمن يصبر عن الطعام والشراب حتى يتضرر بذلك بدنه.

– القسم الخامس : صبر مباح : وهو الصبر عن كل فعلٍ مستوي الطرفين خُيِّر بين فعله وتركه، كمن يصبر عن الطعام والشراب مدة يسيرة.

– أنواع الصبر :

1 . الصبر على طاعة الله : الطريق إلى الله تعالى مليئة بالعوائق؛ لأن النفس بطبعها تنفر من القيود، والعبودية لله قيد لشهوات النفس ؛ ولذلك فالنفس لا تستقيم على أمر الله بيسر وسهولة ، فلابد من ترويضها، وكبح جماحها، وهذا يحتاج إلى اصطبار.

2 . الصبر عن المعاصي والمحرمات : فإن كان مما يتيسر فعله كمعاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء، كان الصبر عليه أثقل.

3 . الصبر على المصائب وأقدار الله المؤلمة : لا أحد يسلم من آلام النفس، وأمراض البدن، وفقدان الأحباء ، وخسران المال. وهذا ما لا يخلو منه بَرٌّ ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولكن المؤمن يتلقَّى هذه المصائب برضىً وطمأنينة.

– ثم إنه للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مواقف في الدعوة إلى الله تدل على صبره، ورغبته فيما عند الله تعالى ، أذكر منها :

أ . اتَّهموا النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) بالجنون، والسحر، والكذب والكهانة، والنبي (صلى الله عليه وسلم) ثابت صابر محتسب يرجو من الله النصر لدينه، وإظهاره.

ب . عن سهل بن سعد (رضي الله عنه) أنه سُئلَ عن جرح النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم أحد فقال : جُرِحَ وجه النبي (صلى الله عليه وسلم) – وكُسِرَت رباعيته، وهُشِمَت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة رضي الله عنها تغسل الدم، وعليٌّ (رضي الله عنه) يمسك، فلما رأت الدم لا يرتد إلا كثرة أخذت حصيراً فأحرقته حتى صار رماداً، ثم ألزقته فاستمسك الدم.

ج . عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) حدثته أنها قالت للنبي (صلى الله عليه وسلم): ((هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على بن عبد ياليل بن عبد كُلال، فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ، وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل"، فنادى فقال: ((إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: ((يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين)) فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَن يعبده وحده لا يشرك به شيئاً"

فانظر إلى صبر النبي (صلى الله عليه وسلم) و حلمه، الدم يسيل من عقبيه الشريفين، ويسأله ملَك الجبال إن كان يريد أن يطبق عليهم الأخشبين يفعل، ومع ذلك يتضرع إلى الله سبحانه، ويدعوه أن يخرج مِنْ أصلابهم مَنْ يعبده وحده، لا يشرك به .

– ثانياً :شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم :

لاشك أن الشجاعة صبر في ساحات القتال والوغى، وفيها ضبط النفس عن مثيرات الخوف حتى لا يجبن الإنسان في المواضع التي تحسن فيها الشجاعة ويقبح فيها الجبن ويكون شرًا، ومن هذه الأمثلة يجد الإنسان أن النبي صلى الله عليه وسلم خير قدوة وخير مثال في ذلك؛ ولهذا جاهد في سبيل الله: بالقلب، واللسان، والسيف، والسنان، والدعوة والبيان، وقد أرسل ستًا وخمسين سرية، وقاد بنفسه سبعًا وعشرين غزوة، وقاتل بنفسه في تسع من غزواته.

– الفرق بين الشجاعة والقوة :

كثير من الناس تشتبه عليه الشجاعة بالقوة وهما متغايران، فإن الشجاعة هي ثبات القلب عند النوازل وإن كان ضعيف البطش.

وكان الصديق رضي الله عنه أشجع الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمر وغيره أقوى منه، ولكن برز على الصحابة كلهم بثبات قلبه في كل موطن من المواطن التي تزلزل الجبال ، وهو في ذلك ثابت القلب ، ربيط الجأش، يلوذ به شجعان الصحابة وأبطالهم، فيثبتهم، ويشجعهم .

– و من صور شجاعته صلى الله عليه وسلم :

عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال : ((لقد رأَيْتُنَا يوم بدر، ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا)).

و عنه (رضي الله عنه) قال : « كنا إذا حمي البأس، ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون أحدنا أدنى إلى القوم منه ».

3 . عن أنس (رضي الله عنه) قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَلَ الصوت، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: "لم تراعوا، لم تراعوا" وهو على فرس لأبي طلحة عري ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: "لقد وجدته بحرًا، أو إنه لبحر » .

4 . قال العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) : لما التقى المسلمون والكفار يعني في حنين و ولى المسلمون مدبرين ، طفق الرسول صلى الله عليه

وسلم يركض بغلته نحو الكفار ، وأنا آخذ بلجامها أكفها لإرادة ألا تسرع ، وكان يقول حينئذ: " أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب ".

– ثالثاً : عفو النبي صلى الله عليه وسلم :

كمال الإنسان أن يعفو عمن ظلمه، والعفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام لأمور :

أ . رجاء لمغفرة الله عز وجل ورحمته فإن ممن عفا وأصلح فأجره على الله .

ب . لإصلاح الود بينك وبين صاحبك.

– الفرق بين العفو والصفح :

الصّفح والعفو متقاربان في المعنى، إلّا أنّ الصّفح أبلغ من العفو فقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وصفحت عنه: أوليته صفحة جميلة.

– و من صور عفوه صلى الله عليه وسلم :

1 . عفوه عن أبي سفيان الذي فعل ما فعل، وأدمى كبد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أُحُد، وحزَّب الأحزاب يوم الخندق ضد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وناصر القبائلَ ضده، وعلى الرغم من كل ذلك يعفو عنه النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة، بل يمنُّ عليه بما يفخر به، وما كان يطمع في أكثر من أن يَهَب له حياته، ولا يضرب عنقه، جزاء ما آذى به المسلمين، ولكن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) يمنحه العفوَ وزيادة؛ إذ يقول: ((من دخل دار أبي سفيان فهو آمِن)).

2 . ويتجلَّى العفوُ عند المقدرة في أروع صوره يوم فتح مكة، حينما دخلها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منتصرًا، وجلس في المسجد والناس حوله والعيون شاخصة إليه ينتظرون ما هو فاعل اليوم بمشركي قريش الذين آذَوْه وأخرجوه من بلده وقاتلوه، والآن هم أمامه لا ملجأ لهم ولا منجى؛ فتظهر مكارمُ أخلاقه، ويظهر عفوه؛ حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : ((اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء)).

3 . عفوه (صلى الله عليه وسلم) عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سَحَر النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) فعفا عنه ولم يعاقبه، وإنما اكتفى (صلى الله عليه وسلم) بقوله : ((شفاني اللهُ، وكرهت أن أُثير شرًّا)) .

4 . وعفوه عن اليهودية التي أهدته الشاةَ المسمومة.